أثر التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي
أثر خفّة الأصوات وثقلها – على المستوى الإفرادي – أنموذجاً

د.بن صحراوي بن يحي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

ملخـّص:

لبيان حيوية وفعّالية أثر التلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي وتعدّد أشكاله حريّ بنا أن نتتبّع مختلف صور التّلوين الصّوتي؛ وهي تعانق مستويات اللّغة وتفصيلاتها.وفيما هو آت سأضطلع على مستوى الإفراد بالشّقّ التّحليلي لظاهرة الخفّة والثّقل في الأصوات وما تقتضيه من إبدال، أو إدغام، أو غيرهما من التّلوينات الّتي تصيب المفردة فتحدّد دلالتها أو تغيّرها أو تيسّر أداءها النّطقي وتحسّنه.

الكلمات المفتاحية: التّلوين الصّوتي؛ التّواصل اللّغوي؛ الصّوت اللّغوي؛ خفّة الأصوات؛ الصّوامت؛ الصّوائت.

Abstract: To demonstrate the vitality and effectiveness of the coloring of vocal colorings in linguistic communication and its various forms, we should follow the different forms of vocal coloring; Or other colorations that effect the individual determines its significance or change or facilitates and inproves its rational performance.

Keywords: vocal coloring; linguistic communication; linguistic sound; silents; sounds.

تتعاضد التّلوينات الصّوتية معاً لتشكيل منظومة جمالية دلالية، تشمل مستويات اللّغة جميعها، من أصوات، ومفردات، وتراكيب، ودلالات، بل إنها تتصرّف في تفصيلات هذه المستويات بكلّ طلاقة،وهذا أصل ظاهر في كلام العرب، عبّر عنه **حازم القرطاجني**(ت684ه) بقوله:« فمن عاداتهم أن يأخذوا الكلام من كلّ مأخذ، ويجتلبوا المعاني من كلّ مجتلب، وأن يتلاعبوا بالكلام على وجوه من الصّحة».[1]

ولـــمّـــا كان التّواصل اللّغوي ميداناً رحباً،تظهر فيه جميع مستويات اللّغة استبان ذلك الأثر الّذي نحن بصدد إبرازه (أثر التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي)، ويتجلّى ذلك في كون التّلوينات الصّوتية تنهل من عطاء اللّغة،وتستمدّ من تفصيلاتها ما يثري جوانب توظيفها في العملية التّواصلية،فهي تبدأ من معالجة الصّوت على المستوى الفونولوجي، وتبحث في كيفية الائتلاف،والاختلاف الصّوتي داخل بنية الكلمة، ثمّ تعرّج على استثمار معطيات المستوى المورفولوجي لتعلّل لظاهرة اختيار صيغة دون

---

[1]- حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، محمد الحبيب بن الخواجة، دار العرب الإسلامية، بيروت، ط1، 1986م،ص180.

غيرها،فيما يعرف بمبدأ الانتقاء وما يلحقه من جماليات،كذلك تستثمر التّلوينات الصّوتية تفصيلات المستوى النّحوي بكلّ أطره، وتعقيداته، فتعالج الأساس البنيوي للجملة، وما يلحق هذا الأساس من فنيات الذّكر والحذف، والتّقديم والتّأخير، والبساطة والتّعقيد، وغير ذلك بما يخدم في نهاية المطاف المستوى الأعلى وهو الأسلوب، لتبقى الدّلالة وما يعانقها من تنغيم وإيقاع جمالي جانباً قارّاً يلازم كلّ تلوين يفرضه التّأثير والتّأثّر الصّوتي، أو يعتمده المرسل النّاطق عن قصد وغاية، لهذا أولت السّيميائيات الحديثة أهمية لشكل المعنى لما له من تأثير في السّيرورة التّواصلية، وذهبت الصّوتيات الوظيفية مذهباً محايثاً في مقاربة شكل المحتوى قصد دراسة المعنى دراسة موضوعية، فلا ينبغي تلقّي المثال الآتي:كيف تعصي والديك؟ على أنّه استفهام يتطلّب جواباً، بل هو استفهام يفيد الإنكار من طرف المتكلّم، وتوبيخ موجّه للمتلقي لا ينصاع له إلاّ بمدى فهمه إثر التّنغيم المناسب.

رأينا نظرياً بعضاً من قيمة التّلوين الصّوتي – الجمالية والدّلالية- في التّواصل اللّغوي سواء أكانت على نحو تبادلي مقصود جرّاء انتقاء المرسل ما يخدم رسالته من أصوات، أو كلمات، أو جمل، أو على نحو تبادلي غير مقصود يفرضه التّأثير الصّوتي أو مقتضى الحال، ويضاف إلى ذلك الآثار النّفسية الّتي تتبّع التّلوينات الصّوتية،فعلى مستوى الإرسال، ما يخفى في قرارة نفس المتكلّم يخرجه الصّوت، وإضافة صفة النّبر والتّنغيم وغيرها من التّلوينات تومئ للمعنى والغرض المقصود. أمّا على مستوى الاستقبال فإن مراوحة الرّسالة بين تلوين صوتي وآخر يدفع الملل عن السّامع،«وكلّما كان الكلام مقتصراً على فنّ واحد من الإبداعات، وإن كان حسناً في نفسه لم يحسن؛لأنّ ذلك مؤدّ إلى سآمة النّفس فإنّ شيمتها الضّجر ممّا يتردد، والولع بمّا يتجدّد »[1]، وبذلك للمتكلّم في التّلوينات الصّوتية تطرية لنشاط السّامع، وتجديد لفكره، وإيقاظ للإصغاء إليه.[2]

كانت هذه صورة نظرية موجزة بشأن أثر التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي، ويبقى كلّ ما سبق ذكره قاصراً لبيان حيوية وفعالية هذا الأثر وتعدّد أشكاله إذا لم نتتبّع مختلف صور التّلوين الصّوتي وهي تعانق مستويات اللّغة وتفصيلاتها.

وفيما يستقبل من هذا العرض، سأضطلع على مستوى الإفراد بالشّقّ التّحليلي لظاهرة الخفّة والثّقل في الأصوات وما تقتضيه من إبدال، أو إدغام، أو غيرهما من التّلوينات الّتي تصيب المفردة فتحدّد دلالتها، أو تغيّرها أو تيسّر أداءها النّطقي وتحسّنه.

أثر خفّة الأصوات وثقلها في التّواصل اللّغوي (على الممستوى الإفرادي):

يحاول الإنسان بطبعه أن يكون مردود أفعاله أكثر من المجهود العضلي أو الفكري الّذي تُكلّفه، ومن ذلك ميله إلى تخفيف الكلام، فينزع إلى تغيير بعض الأصوات ما أمكنه

---

[1]- حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء و سراج الأدباء**، ص61.

[2]- ينظر: طه رضوان طه رضوان، **تلوين الخطاب في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه ، إشراف:عبده علي الرّاجحي، ومحمّد بدري عبد الجليل ، دار الصّحابة للتّراث، طنطا، ط1 ،2007م، ص19.

التّخفيف والاقتصاد في الجهد العضلي عند نطقها،ليحدث بينها ضرباً من الانسجام والوحدة، ويسمّي اللّغويون العرب هذه الظّاهرة بـــ**"الخفّة"**، والاقتصاد المحمود هاهنا هو« أن يكون هناك تكافؤ وتوازن بين المجهود العضلي أو الفكري، وبين الفائدة المرجوة من وراء ذلك،أي ما يبذله الإنسان من جهد في كلمة أو اختيار صيغة من الصّيغ يجد له ما يعادله من الفائدة ».[1]

ويتبدّى هذا كلّه في الأصوات بشكل عام قبل أن تدخل التّركيب في بنية المفردات، « حتّى إذا صارت في صيغة لفظية، من الأسماء، أو الأفعال، أو الحروف خضعت لتطوّرات جديدة تصقل الألفاظ، وتكوّن صورة انسيابية متساوقة الأجزاء، أداؤها لا يوازي مجموع الأصوات المشتركة فيها، وإنّما هو كلّ مطبوع بالوحدة والتّجانس والانسجام »[2]،ممّا موضوعه الإدغام، والإبدال، والقلب، وتخفيف الهمز، والإمالة، وغيرها من التّلوينات الصّوتية.

إنّ ما يحتاج إلى توضيح قبل معالجة أثر الخفّة الصّوتية ومظاهره في التّواصل اللّغوي بالتّمثيل والتّحليل هو: - بم تختصّ الخفّة الصّوتية، بالأسماء أم بالأفعال؟ - أين يكمن الثّقل في بداية الصّيغة، أم في وسطها، أم في نهايتها؟ - وهل الثّقل يكون في الصّوائت أم في الصّوامت أم فيهما معاً؟ أم في وضعية الصّائت مع الصّامت؟

يقول **سيبويه**(ت180ه):« واعلم أنّ بعض الكلام أخفّ من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأنّ الأسماء هي الأوّل،و أشدّ تمكّنا ».[3]في هذا النّص يحصر **سيبويه** ظاهرة الخفّة في الأسماء ويسند لها الأولوية وشدّة التّمكّن كما هو واضح من تقسيمه للأسماء على النّحو الآتي:

أ- قسم متمكّن أمكن:وهو الّذي يقبل جميع علامات الإعراب، وصيغ هذا القسم كثيرة،هنا وصف **سيبويه** الاسم المتمكّن بالخفّة لأنّه يقبل كلّ الصّوائت، ومعنى هذا أنّ الخفّة تكمن في تقبّل الصّيغة الإفرادية لكلّ الصّوائت لأنّها بذلك تكون مطاوعة للمتكلّم طيّعة له في تنويعها وتلوين الأداء بها، ويعدّ هذا شكلاً من أشكال تأثير التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي.

ب- قسم متمكّن غير أمكن: وهو الّذي لا يقبل من علامات الإعراب إلّا اثنتين فقط (الضّمّة والفتحة)،ويتمثّل في الممنوع من الصّرف والمعروف أنّ الصيغة تمنع من الصّرف لعلّه أو لعلّتين، ومجموع هذه العلل تحول دون مطاوعة الاسم للنّاطق وقبول كلّ التّلوينات الصّوتية لذوق مسبق عند النّاطق بالصّيغة، وذلك شكل ثان من أشكال تأثير التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي.

---

[1]- التواتي بن التواتي، **مفاهيم في علم اللسان**، مكتبة رويغي ، الأغواط ، ط2006،1م، ص126.

[2]- فخر الدّين قباوة، **مشكلة العامل النّحوي و نظرية الاقتضاء**، دار الفكر، دمشق، ط1، 1424هـ/2003م، ص22.

[3]- سيبويه، **الكتاب**، تح: عبد السّلام هارون، مط:عالم الكتب، بيروت، لبنان،، ط1 ، 1966م، ج3 ص479.

ج- قسم غير متمكّن غير أمكن: وهو الّذي يختصّ بالمباني الثّابتة على حال واحدة في مثل (من، ما، ...)، والأفعال ثقيلة في نظره لأنها قليلة الصّيغ، ثابتة على ثلاثة أصول بحسب ثلاثة صوائت فقط، عين الصّيغة (وسط الفعل)هي الموقعية المختصّة بالتّنويع والتّلوين، وتُحصر الخفّة في الأسماء كذلك لكثرتها وتنوّع أوزانها،« أصول الأسماء المجمع عليها الّتي لا زيادة فيها تسعة عشر بناءً ».[1]

عرض **سيبويه** لمعالم الخفّة والثّقل، ولكن يبقى هذا العرض غير مطمئن للإجابة عن الأسئلة السّابقة؛لأنّه حصر ظاهرتي الخفّة والثّقل في وسط الصّيغة (عين الفعل) وفي نهايتها (أواخر الأسماء داخل التّركيب)، ولم ينبّه على بدايتها، بالإضافة إلى كونه أشار إلى وظيفة الصّوائت دون الصّوامت في خفّة الصّيغة وثقلها.

اهتدى **سيبويه** إلى أنّ « الثّقل والخفّة يكمنان فيما كثرت صيغه، وتنوّعت حركاته، أو فيما قلّت صيغه وتماثلت حركاته » [2]، لكن ذلك غير راجع لوظيفة الصّوائت وحدها في خفّة أو ثقل الصّيغة الإفرادية، بل مردّ ذلك كلّه إلى كيفية توزيع الصّوائت بحسب مخارج الصّوامت وصفاتها، فإذا أحسن توزيعها وتنظيمها في الصّيغة الإفرادية أكسبها ذلك خفّةً وانسجاماً وتآلفاً بين صوامتها، ممّا محلّه الإدغام والإبدال في الصّوامت والصّوائت معاً، أو ممّا محلّه القلب والإمالة في الصّوائت القصيرة والطّويلة.

أمّا أسباب ثقل الكلمة على النّاطق وضجر السّامع منها، فمنها الرّتابة الّتي تنجم عن تتابع الصّوائت دون السّكنات،« إنّ أفضل الكلام وأحسنه ما بني على المراوحة بين الحركات والسّكنات، وعادل بينها المتكلّم، فإذا كثرت فئة على أخرى ثقل الكلام وانصرف النّاس ».[3]ما يمكن أن يستفاد من هذا النّص أنّ استثقال الصّيغة الإفرادية لا يكون على أساس التّفاوت في درجات الثّقل بين الصّوائت فحسب، بل يكون على أساس وضعيات الصّوائت مع الصّوامت مع مراعاة التّقارب أو التّباعد الصّوتي في السّياق حيث« إنّ الصّوائت مع تفاوتها في الثّقل،إنْ أجيد توزيعها وتنظيمها نتج عنه توافق وانسجام في عناصر الصّيغة الإفرادية ».[4]

ممّا تجدر الإشارة إليه، إنّ وظيفة الخفّة الصّوتية النّاجمة عن حسن توزيع وتنظيم الصّوائت مع الصّوامت ليست صوتية فقط، بل هي دلالية كذلك، أي لا تقتصر على حسن الأداء الصّوتي وجودته لدى النّاطق فقط،بل تؤدّي دلالات مختلفة في ذهن السّامع، قد

---

[1]- عبد المنعم فائز، **السّيرافي النّحوي**، مطبعة دار الفكر، دمشق، ط1 ، 1983م ، ص595.
[2]- مكّي درّار، **الحروف العربية و تبدّلاتها الصوتية في كتاب سيبويه** (رسالة ماجستير)، إشراف: ابراهيم العطية ، جامعة وهران، 1985م/ 1986م، ص432.
[3]- محمّد خان، **اللّهجات العربية و القراءات القرآنية- دراسة في البحر المحيط** ، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2002م.، ص94.
[4]- مكّي درار، **الحروف العربية و تبدّلاتها الصوتية في كتاب سيبويه**، ص433.

تكون قريبة من الدّلالة الّتي قد يحملها شيوع الضّم، أو الكسر، أو الفتح* في الصّيغة الواحدة، وقد تكون قريبة من الدّلالة التي يحملها توظيف صامت دون آخر في موضع من الصّيغة، وهذا لون آخر من ألوان تأثير التّلوينات الصّوتية في التّواصل اللّغوي.

وإذا كان لنوع توزيع الصّوائت مع الصّوامت دور في خفّة الصّيغة أو ثقلها فإنّ علّة ذلك يكون في بداية الصّيغة، أو وسطها، أو آخرها، أو في موضعين منها إذا أخذنا بالثّلاثي أصلاً للكلمة، كما سنتمثّله من خلال التّحليلات والتّعليلات الصّوتية الآتية:

أوّلاً: في بداية الصّيغة الإفرادية:

يقول سيبويه:« ليس في الكلام حرف أوّله مكسور والثّاني مضموم » [1]،يشير هذا النّص إلى عدم مجيء صيغة ثلاثية مكسورة الفاء مضمومة العين؛ لأنّ الكسرة مستفلة في آخر الجهاز النّطقي، والضّمّة مستعلية في مبدئه، لهذا يصعب على النّاطق التّصعّد والرّجوع إلى الوراء، من الكسر المستفل إلى الضّمّ المستعلي، ومثاله في كلمة (شِكُولاطة)، الّتي إذا طلب ناطقها الخفّة أبدل الكسرة في أوّلها ضمّة فتصبح (شُكُولاطة).وقد شاع استعمال (شوكو) بإضافة واو المد للصّامت الأوّل فيصير الصّائت طويلاً،وهو تلوين صوتي يتعلّق بالكميّات الصّوتية الامتدادية مع حذف ما تبقّى من الحروف اقتصاداً للجهد العضلي من المتكلّم، ومعرفة سابقة لدى السّامع بما توحي به هذه الصّوامت والصّوائت من دلالة،بينما عكسها خفيف مقبول ممّا كان على وزن (فُعل) بضمّ الفاء وكسر العين،كما هو الحال مع ماضي الثّلاثي المبني للمجهول نحو (قُرأ،كُتب).

الأصل أن نقول (بُرْغُوث) بضمّ الباء، لكن يستثقلها النّاطق،فيبدل ضمّة الباء فتحة، ليس لأنّ الفتحة أخفّ من الضّمة وإنّما لأنّ ضمّ الباء يجعل طرف اللّسان يلتصق تماماً بالحنك الأعلى مع صوت الرّاء المجهورة المكرّرة ومايلي ذلك من صعوبة وثقل في نطق الغين المجهورة الرّخوة، وهذا المثال يؤكدّ أنّ التّفاوت بين الصّوائت في درجات الثّقل ليس هو السّبب في استثقال صيغة أو خفّتها، وإنّما مردّ ذلك إلى كيفية توزيعها وتنظيمها،ومن الأمثلة في هذا الشّأن، إبدال فتحة الباء كسرة إتباعا لحركة الميم في (بَرميل) فتصير (بِرَميل)، فرغم أنّ الفتحة أخفّ من الكسرة،إلّا أنّ الكسرة في بداية هذه الصيغة تجعلها منمنمة خفيفة، يتخالف فيها الكسر مع السّكون،حتّى يكاد صوت الرّاء يختفي فيها،ومن ذلك قولك (مِنْسي) بكسر الميم بدلا من فتحها، و(بِطريق) بكسر الباء بدلاً من فتحها.

هذه أمثلة عمّا يتعلق بالصّوائت، أو ما يوصف **بـ"التّوافق الحركي"** في بداية الصّيغة ممّا يدخل الانسجام والتّآلف بين كلّ صوامتها فيجعلها خفيفة على اللّسان،

---

*- الضّمّة علم للإسناد، ودليل الرّفعة والقوّة والثّبات. الكسرة علم للإضافة ودليل التبعية والضّعف.الفتحة علم لما ليس بإسناد ولا إضافة (ينظر: مهدي المخزومي، **في النّحو العربي- نقد و توجيه**: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1 ، 1964م ، ص67).

[1]- سيبويه ، **الكتاب**، ج4 ص146.

يرغب النّاطق في إتيانها، ويطرب السّامع لسماعها وبالتّالي تستمرّ العملية التّواصلية.وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ المرسل النّاطق قد يستثقل كلمة داخل السّياق، فيغيّر الصّائت الأوّل (في صدرها) دون أن ينتبه إلى ما ينجم من تغيير في دلالة هذه الكلمة ، وبذلك يصير للخفّة الصّوتية أثر دلالي في التّواصل اللّغوي، ومن ذلك مثلّثات الكلام كمثلّث **قطرب** (ت206هـ):

الكَلاَمُ بفتح الكاف: القول.

الكِلاَمُ بكسر الكاف: الجرح

الكُلاَمُ بضمّ الكاف: الأرض الصّلبة ذات الحصى و الحجارة.[1]

أمّا فيما يتعلّق بالصّوامت في صدر الصّيغة الإفرادية، فلنا في الأمثلة الآتية ما يوضّح دورها في خفّة الصّيغة أو ثقلها:

- تخفّف الهمزة في كلمة (أحمد) إذا سبقت بهمزة،نحو قولك (جاء أحمد)، يسمعها المستقبل وحدة صوتية واحدة، لا يفهم معناها إلاّ من خلال السّياق، وهنا اقتصاد للجهد العضلي عند الأداء الصّوتي ممّا يساعد المتكلّم على الاسترسال في كلامه، ودفع الرّتابة عن السّامع.

- ومن ذلك إدغام الثّاء في الذّال مثل (ابعث ذلك)، وفي الظّاء مثل (ابعث ظاهرا)، والذّال في الثّاء مثل (أنقذ ثابتا) وفي الظّاء (اللّهم خذ ظالما)، والظّاء في الثّاء مثل (أحفظ ثابتا) وهي في الذّال مثل (أحفظ ذلك)، وواضح أنّ الإدغام هنا-إدغام حروف طرف اللّسان وأطراف الثّنايا العليا- يوفّر جهداً أكثر ممّا يوفّر في حالات الإدغام الأخرى؛ لأنّ هذه الحروف نطقها مجهد حيث تتطلّب مدّ اللّسان حتّى يقع طرفه بين الثّنايا العليا والسّفلى،فالإدغام في نطق المتواليين منهما يخفّف شطر الجهد الّذي يبذله عند عدم الإدغام.تنطق العامّة في بعض المناطق الجزائرية الذّال دالاً فيقولون (الدّكر، والدّهب، والدّنب) بدلاً من (الذّكر، والذّهب، والذّنب) وذلك تخفّفاً من مدّ طرف اللّسان بين الثّنايا إلى أسفلها.

- ترقّق الصّاد في (صَفَط) وهو وعاء كالجوالق أو كالقفّة،فتنطق (سَفَط) من السّقوط[2].

- السّين في (سَعَد) من السّعادة عندما تفخّم تنطق صاداً فيقال (صَعَد) من الصّعود، وكذا الحال في (سدّ) و(صدّ)،« فالسّد دون الصّد؛لأنّ السّد للباب يسدّ والمنظرة ونحوها،

---

[1]- محمّد بن المستنير (قطرب)، **مثلّثات قطرب** ، تح: رضا السويسي، الدّار العربية للكتاب ، ليبيا، تونس، ط1 ، 1978م، ص12.

[2]- محمّد حسن حسن جبل، **المختصر في أصوات اللغة العربية– دراسة نظرية وتطبيقية**، مط: البربري للطّباعة الحديثة ، بسيون، مصر، ط3 ، 2005م/ 1426هـ ، ص144.

والصدّ جانب الجبل والوادي والشّعب،وهذا أقوى من السّد الّذي قد يكون لثقب الكوز، ورأس القارورة، ونحو ذلك ».[1]

وإذا كانت الوظيفة الصّوتية الدّلالية واضحة هنا، يبقى السّؤال مطروحاً:- أين تكمن الخفّة في هذه الحالة وفي سابقتها؟،والجواب:إنّ في إبدال الذّال دالاً وترقيق الصّاد سيناً تخفيف بالاقتصاد في حركات اللّسان،وتصرّف في الكمّيات الصّوتية، وعدم التّقيّد بمدّ طرف اللّسان بين الثّنايا في الذّال في الحالة الأولى، والانتقال من إطباق الصّاد واستعلائها إلى انفتاح السّين واستفالها في الحالة الثانية.

ثانياً: في وسط الصّيغة الإفرادية:

عند هذه الموقعية تتداخل الدّراسة الصّوتية مع الدّراسة الصّرفية، وعلى ضوئهما أحاول إبراز دور خفّة الصيغة أو ثقلها في التّواصل اللّغوي من خلال النّماذج الآتية:

- أن ينطق المتكلّم (فار) أو (بير) أخفّ على لسانه، وأيسر في نطقه من أن ينطق (فأر) أو (بئر) بتحقيق الهمز.

- تبدل الهاء ألف مدّ في (أهلك) فتصبح (آلك)، وفي (آلك) اقتصاد في عدد الصّوامت، وفي حركة اللّسان لدى المتكلّم.

- إذا كان الاسم ثلاثياً مكسور الوسط،سكّنوا وسطه استخفافاً في مثل (كبد وفخد)، « وإنّما حملهم على أنّهم كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم عن المفتوح إلى المكسور، والمفتوح أخفّ عليهم، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخفّ إلى الأثقل».[2]

- إذا التقت همزتان في كلمة واحدة ثقل على لسان المتكلّم تحقيقهما فيقلب الهمزة الثّانية حرف لين، فكلمة (أئمّة) ينطقها (أيمة) بالياء، فهي بذلك خفيفة طيّعة لديه.

- وإذا أراد المتكلّم خفّة في نطق الفعل (بويع) من (بايع) اختلس كسرة الياء وكان في ذلك تقليل من الكمّية الصّوتية للكسرة حتّى تكاد تختفي ممّا يحقّق الانسجام الصّوتي بين عناصر هذه الصّيغة.

- ومن أوجه تأثّر الأصوات ببعضها عند تجاورها في صيغة واحدة ما يتعلّق بالحروف الّتي يشترك في إخراجها طرف اللّسان عندما تقع عيناً لصيغة (افتعل) أو فاء لصيغتي (تفعّل، تفاعل)،« فإذا وقع أيّ من الحروف العشرة (د،ت،ط/ز،س،ص/ ث،ذ،ظ،ض) عيناً لكلمة على صيغة افتعل يجوز إدغام تاء افتعل في ذلك الحرف، ويترتّب على هذا تحريك فاء افتعل حتّى لا يلتقي السّاكنان، وبتحريك الفاء تسقط ألف الوصل لأنّها جيء

---

[1]- صبحي الصّالح ، **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، لبنان، سبتمبر2002م، ص143، (نقلاً عن: **الخصائص**، ابن جنى، مط: الهلال، مصر،1331م/1913م ، ج1ص553).

[2]- سيبويه، **الكتاب**، ج6 ص314.

بها للنّطـق بالسّاكن، وبذلك تصبـح اقتدر قـدّر، واقتتل قتّـل، واقتطع قطّـع...وكذا يقال في انتزع، وانتسق، وانتصب...».[1]

- وإذا وقع أيّ من الحروف العشرة المذكورة، أو الشّين ، أو الجيم فاء لصيغة (تفعّل) أو (تفاعل) فإنّه « يجوز إدغام تاء تفعّل أو تفاعل في ذلك الحرف، فتبدأ الكلمة بحرف مدغم ساكن، فتجتلب ألف وصل للنّطق بالسّاكن،فيقال في تتزّس اتّرس، وفي تدلّى ادّلّى، وفي تدابروا ادّبروا، وهكذا».[2]وإذا أتى بعد الضّاد السّاكنة حرف الطّاء المتحرّكة تنطق طـاء ساكنة، لاحظ أنّك ستنطق (اضطلع) اطّـلع، و(اضطهد) اطّـهد بنطق واحد برغم اختلاف حروفهما، ولا يفرّق بينهما إلّا سياق الكلام.

-ومن أوجه تأثّر الأصوات المتجاورة ببعضها كذلك تحوّل الكمّية الصّوتية من صورة إلى أخرى، فكلمة (أَسْد) بإسكان السّين تنطق زاياً لأنّ السّين وقعت تحت تأثير الدّال المجهورة فصارت زاياً،وهذا تأثير رجعي جعل كلمة (أُزْد) أخفّ على اللّسان،لا تكلّف في أدائها، دون تغيّر في الدّلالة على جمع (أسَد) وهو الحيوان المفترس المعروف.

الظّاهر أنّ التّلوينات الصّوتية الّتي تضمّنتها هذه الأمثلة وظيفتها في التّواصل اللّغوي صوتية محضة، تتمثّل في تحقيق الاقتصاد في الجهد، والسّهولة، والانسجام في الأداء الصّوتي لدى المتكلّم النّاطق،حيث الصّيغ متّسقة العناصر،وهي تتوالى منمنمة في خطّيّة تجعل الرّسالة واضحة مفهومة لدى السّامع.

ثالثاً: في نـهاية الصّيغة الإفرادية

إنّ حديث النّهايات في موضوع الخفّة والثّقل أكثر من سابقيه، ونماذجه كثيرة متنوّعة، ذلك لأنّ موقعية النّهاية ترتبط بالمستويين الصّوتي والصّرفي، وهي أكثر ارتباطاً بالمستوى التّركيبي.فالثّقل في أواخر الكلمات يكمن فيما يمنع من ظهـور علامات الإعراب وحركاتـه على الواو والياء، في الأفعـال والأسمـاء على السّواء، وإزالتـه أكثر ما تكـون بالحـذف أو الإشبـاع، وللحذف ألوان منها حذف التّنوين،ونون الجمع الّتي هي عوض عن التّنوين في الاسم المفرد استخفافاً كالّذي في (كلّ أمر بالغ النّهاية)، أوفي قولك (أقبل فلاّحو القرية) وممّا في هذا اللّون:« واعلـم أنّ العرب يستخفّـون فيحذفـون التّنوين والنّون، ولا يغيّر من المعنى شيء »[3]، ومن ألوان الحذف كذلك التّرخيم وهو حذف آخر المنادى تخفيفاً،ي قول **ابن مالك** (ت672ه):

تَرْخِيمًا احْذِفْ آخِرَ المُنَادَى *** كَيَاسُعَا فِيمَنْ دَعَا سُعَادَا

فإذا كانت المخاطبة فاطمة ودعاها المخاطب المتكلّم:(يا فاطم)،كان ذلك أخفّ على لسانه ممّا لا يؤثّر في مضمون الرّسالة،ولا يدعو إلى الاستغراب لدى فاطمة، ويفسّر

---

[1]- محمّد حسن حسن جبل، **المختصر في أصوات اللغة العربية**، ص206.
[2]- نفسه ، ص207.
[3]- سيبويه، **الكتاب** ، ج1 ص165- 166.

التّرخيم بعناصر السّهولة، والاقتصاد، والشّيوع؛ لأنّ التّرخيم من خصائص النّداء، والنّداء كثير في العمليات التّواصلية، والكلمة إذا شاع استعمالها كانت عرضة للاختصار من غيرها.[1]وقد يكون ذلك بحذف أكثر من حرف كما في اسم (عبد القادر)، فبدلاً من نطقه كاملاً يختزل وينطق (عبدقّ)، ونتيجة لاستعمالها المتداول وترديدها بين مجموعة اجتماعية،تصبح منتظمة في سياق التّواصل.[2]

إنّ حذف أواخر الصّيغ يناقضه الإشباع،« فأمّا الّذين يشبعون فيمطلون، وعلامتها واو وياء، وهذا يحكمه لك المشافهة »[3]، يعني أنّ في الإشباع إضعاف للكمّية الأصلية لآخر صائت من الصّيغة، فهو إذن من الكمّيات الامتدادية.

فيما سبق خرج بنا الإشباع، والحذف بألوانه الثّلاثة (حذف التّنوين، حذف نون الجمع، التّرخيم) من الإفراد مجال الدّراسة إلى التّركيب ليثبت لدينا أنّ كلاّ منهما يقيم التّوازن والانسجام بين عناصر الصّيغة، ويزيل الثّقل عنها، ومن الحذف الّذي لا يتجاوز الوظيفة الصّوتية حذف ياء الاسم المقصور إذا كان نكرة وتعويضها بالتّنوين إزالة للثّقل، فتقول في النّكرة من (القاضي و المتعالي) قاضٍ و متعالٍ، ابتغاء الخفّة الصّوتية، واقتصاداً للجهد، وطلباً للانسجام الصّوتي، ويحيلنا هذا إلى ترتيب الصّوائت الطّويلة حسب درجة الثّقل، حيث يرى **سيبويه** أنّ:« الواو والياء أقل من الألف، فإذا كان قبل الياء كسرة، وقبل الواو ضمّة كان أثقل، وقد يحذفون في الوقف الياء الّتي قبلها كسرة وهي من نفس الحرف، نحو القاضي، فإذا كانت الياء هكذا، فالواو بعد الضّمّة أثقل عليهم من الكسرة لأنّ الياء أخفّ عليهم من الواو».[4]

و قد يقف المتكلّم عند بعض الكلمات الممدودة،فينطقها مقصورة طلباً للخفّة واقتصاداً في الجهد، فيقول(القفا) بدلاً من(القفاء العنق)، ويقول(العطا) بدلاً من (العطاء)، هنا المعنى واحد غير مختلف لدى كلّ من المتكلّم والسّامع، أي لا يعدو أن يكون أثر الخفّة في التّواصل اللّغوي صوتياً في هذه الحالة.وقد يتجاوز الوظيفة الصّوتية إلى الوظيفة الدّلالية حيث يتغيّر المعنى إثر التّخفيف الّذي يطرأ على الصّيغة، فمثلاً (الدّواء) بالمدّ:ما داويت به، وإذا مدّه المتكلّم تخفيفاً قال (الدّوا) بالقصر: المرض، وهو ما لا يقصده المتكلّم، ممّا يؤدّي إلى التباس الأمر على السّامع وإثارة تساؤلاته، ومثاله كذلك (الرّنا) ما يرني إليه لحسنه، وبالضّمّ والمدّ: الصّوت والطّرب.[5]

---

[1]- ينظر: ابراهيم أنيس، **الأصوات اللّغوية**، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة، مصر، 1971م ، ط4 ،ص243.

[2]- ينظر: أحمد يوسف، **سيميائية التّواصل و فعّالية الحوار- المفاهيم والآليات**، منشورات مختبرات السّيميائيات وتحليل الخطاب ، جامعة وهران،، ط1 ، 2004م ، ص162.

[3]- سيبويه، **الكتاب**، ج4 ص102.

[4]- نفسه ، ج4 ص167.

[5]- ينظر: ابراهيم أنيس، **الأصوات اللّغوية** ، ص102.

(هذا أسدّ) يقولها المتكلّم في المفاضلة بين قول وآخر من حيث السّداد، فإذا وقف عليها استخفافاً قال (هذا أسدْ)، ويمكن أن يفهم السّامع أنّ المقصود هو الأسد الحيوان أو شجاعته.

إنّ استثقال الصّيغة الإفرادية كما أشرت لا يكون على أساس التّفاوت في درجات الثّقل بين الصّوائت فحسب،بل يكون على أساس وضعيات الصّوائت مع الصّوامت، فنحن نقول في العربية الفصحى: منه، فوقه، تحته بهاء مضمومة، ولكنّنا نقول: به، عليه، فيه، فتجعل الحركة التالية للباء والياء كسرة، والضّمير هو الضّمير، فلِم حدث هذا الاختلاف؟[1]، هذا الاستفسار نجد له إجابة في قول **سيبويه**:«... فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة، في مثل فيه، به - لأنّها خفيّة كما أنّ الياء خفيّة، وهي من حروف الزّيادة كما أنّ الياء من حروف الزّيادة... فكما أمالوا الألف في مواضع استخفافا كذلك كسروا هذه الهاء وقلبوا الواو ياء لأنّه لا تثبت واو ساكنة وقبلها كسر، فالكسر ههنا كالإمالة في الألف لكسرة قبلها،وما بعدها »[2]، يحقّق هذا التّفسير مناسبة الأصوات لبعضها في السّياق، أو ما يسمّى بالتّوافق الحركي وهو أحد مظاهر الخفّة الصّوتية الّذي يخدم اتّساق عناصر الرّسالة الصّوتية وانسجامها.

من التلّوينات الّتي تصيب صوامت نهاية الصيغة، والّتي تحقّق الخفّة الصّوتية **التّجانس الصّوتي**، ومن صوره الإبدال فكلمة (رجس) مثلاً ينطقها المتكلّم (رجز) بإبدال السّين المهموسة زاياً مجهورة تحت تأثير الجيم المسبوقة بالرّاء المرقّقة،وهنا الوظيفة صوتية لا دلاليـة لأنّ الـرّجس والـرّجز سواء وهما العذاب.و ما يستفاد من هذا أنّ الخفّة الصّوتية لا تخضع أحيانا لإرادة المتكلّم بل هي نتيجة يفرضها تأثّر الأصوات ببعضها داخل السّياق الصّوتي، كما هو الحال في أمثلة **التّماثل الصّوتي** الآتية:

-كلمة (أَخَذْتُ)تأنّياً،وفي حالة الإسراع تنطق(أَخَتُّ) فقد أثّرت التّاء المهموسة في الذّال المجهورة، فأفقدتها جهرها وصارت مهموسة مثلها، وتحوّلت إلى تاء، وأدغم الصّوتان، وهذا تماثل رجعي، ومثاله كذلك (عبدْتُ) لتقارب مخرج التّاء مع كلّ من مخرج الدّال، ومخرج الذّال.

- ومن ذلك إذا أتى بعد الضّاد السّاكنة حرف التّاء المتحرّكة فإنّ حرف الضّاد ينطق طاءً ساكنة، نحو (نهضت، ركضت...).

- من الصّيغ ما كانت عينـها مضعّفة ولامها مثـلان،النّـاطقون بها « يستثقلون النّطق بالمثلين المتوالين- إذا لم يدغم أوّلهما في ثانيهما- لأنّه كمشي المقيّد، ثمّ إنّ هذه الأبنية قد تتصرّف إلى صيغ تُضعّف فيها عينها فيصير في آخرها ثلاثة أحرف متماثلة فيزداد الثّقل، ولذا كثيراً ما يبدلون آخر تلك الحروف المتماثلة إلى حرف مدّ تخفيفا ».[3] كما في

---

[1]- ينظر: مكّي درّار، **الحروف العربية و تبدّلاتها الصّوتية في كتاب سيبويه**، ص438.
[2]- نفسه ، ص438.(نقلاً عن: سيبويه، **الكتاب**، ج4 ص195).
[3]- محمّد حسن حسن جبل، **المختصر في أصوات اللّغة العربية**، ص205.

(تظنّن)، حيث توالت ثلاث نونات فلما استثقل النّاطق ذلك تخلّص من أحدها بقلبها صوت علّة فصارت (تظنّى)، ومنها قول المتكلّم (تظنّيت) بدلاً من (تظنّنت)، بإبدال النّون ياء لكراهية التّضعيف، وتعرف هذه الظّاهرة بـ**"المخالفة"**، و« هي أنّ الكلمة قد تشمل على صوتين متماثلين كلّ المماثلة، فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتمّ المخالفة بين الصّوتين المتماثلين »[1]، ومن أمثلتها (دسّى) أي أغرق في الشّهوات والضّلال، أصلها (دسّس)، و(تسنّى) أي تغيّر، أصلها (تسنّن)، و(تلظّى) أي تضطرم وتلتهب، أصلها (تلظّظ)... [2]

إنّ تأثير التّماثل الصّوتي في التّواصل اللّغوي من خلال النّماذج السّابقة صوتي نفسي، لأنّ نفس المتكلّم ترغب في الأداء الصّوتي، والاستمرار في التّواصل مع مخاطبه كلّما وجدت ضالّتها فيما هو سهل خفيف، يوفّر الجهد العضلي، ويكفيه عناء التكلّف،حتّى قد يستمتع برسالته الصّوتية الّتي تلتقطها أذن السّامع منمنمة متّسقة، فتستأثر إعجابه ويشدّ إليها في غير رتابة وملل.

خاتمـــــــة

تتبّعنا بالتّمثيل مسار الخفّة من بداية الصّيغة إلى نهايتها، ويبقى ثابتاً من مظاهر الخفّة الصّوتية على مستوى الإفراد ما اختصّت به لغتنا العربية الفصحى،« فلا تجتمع في كلمة عربية قاف وجيم، ولا كاف وقاف،و لا كاف وجيم، ولم يبنوا في الكلام سص، ولا صس، ولا ظث، ولا ثظ، ولا ضش، ولا شض، ولا العين مع غير الهمزة من حروف الحلق ولا الحاء مع الهاء أو الغين » [3]،كما لا يخفى دور حروف الذلاقة (ر، ل، ن، ف، ب، م) في بناء الكلام وخفّته،وهي حروف تتّصف في نطقها بالخفّة والسّلاسة لذلك كثرت في الأبنية.

بحديثي هذا عن ظاهرتي الخفّة والثّقل في الأصوات،أكون قد عالجت بالتّمثيل والتّحليل أغلب تلوينات الصّوائت والصّوامت من **الكمّيات الاتّساعية والامتدادية**، إلى **التّماثل**، و**التّوافق**، و**التّجانس**، و**التّخفيف** لأتوصّل في نهايته إلى مايلي:

1-إنّ أفضل الكلام ما بني على المراوحة بين السّكنات والحركات،فإذا كثرت إحداهما على الأخرى ثقل الكلام وانصرف السّامع عنه.

2-إذا كانت الضمّة أثقل الحركات، فهذا لا يعني أن يثقل معها التّعبير،وإنّما حسن توزيع هذه الصّوائت وجودة تنظيمها مع الصّوامت بحسب التّجاور والتّباعد في السّياق، وهو ما يضفي على الأداء خفّة، وفي عكسه ثقل في التّعبير، بمعنى أنّ الخفّة أو الثّقل لا يحكمها التّفاوت في درجة الثّقل بين الصّوامت، بل تخضع لكيفية توزيعها وتنظيمها.

---

[1]- إبراهيم أنيس، **الأصوات اللّغوية** ، ص211.
[2]- ينظر: محمّد حسن حسن جبل، **المختصر**، ص205.
[3]- نفسه، ص204.

3-إنّ ما يستحسن في صيغة قد يستقبح في غيرها، وما ينتج خفّة في أبنية قد يكون عامل ثقل في أبنية أخرى.

4-تنطوي تلوينات الصّوائت والصّوامت تحت موضوع الخفّة والثّقل في الأصوات وتتلخّص آثارها في التّواصل اللّغوي فيما يلي:

أ- أثر صوتي: يكمن في تحقيق الانسجام بين عناصر الرّسالة.

ب- أثر جمالي بلاغي: إن في الانسجام الصّوتي عذوبة، وسلاسة تضفي المتعة الفنيّة على الرّسالة الصّوتية ممّا هو أدعى إلى تمثّلها لدى كلّ من طرفي التّواصل.

ج- أثر نفسي: فضلاً عمّا يخرجه الصّوت من قرارة نفس المتكلّم، فهو بالتّلوينات الصّوتية الّتي تعتري منطوقة، وبما يترتّب عنها من انسجام وتآلف واتّساق يعبّر عن سلامة ذوقه، ورهافة حسّه، وكلّما وجدت نفسه ضالّتها في أداء صوتي سهل، خفيف، منسجم، يوفّر عنه الجهد العضلي ويكفيه عنـاء التكلّف، رغبت فيه إلى حدّ الاستمتاع بـه، واستمرّت بذلك العملية التّواصلية برسائل منمنمة متّسقة تلتقطها أذن السّامع فتستأثر إعجابه، ويُشدّ إليها في غير رتابة وملل.ويضاف إلى ذلك الاستراحات النفسية لدى كلّ من طرفي التّواصل، والّتي تنتج عند توظيف السّكنات في موضعها المناسب.

د- أثر دلالي:ويتجلّى في التغيّرات الدّلالية الّتي تطرأ تبعاً للّتلوينات الصّوتية الّتي تصيب عنصراً، أو أكثر من عناصر الصّيغة الإفرادية ممّا يؤثّر على مضمون الرّسالة بشكل عامّ.

ثبت المصادر والمراجع

- ابـراهيم أنـيس، **الأصـوات اللّغويـة** ، مكتبـة الإنجلـو المصـرية ، القـاهرة، مصـر ، ط4، 1971م.
- ابن جنى، **الخصائص** ، مط: الهلال، مصر،1331م/1913م ،ج1.
- التواتي بن التواتي، **مفاهيم في علم اللّسان**، مكتبة رويغي، الأغواط ، ط1، 2006م.
- حـازم القرطـاجني، **منهـاج البلغـاء وسـراج الأدبـاء**، محمـد الحبيـب بـن الخواجـة، دار العرب الإسلامية،بيروت، ط1، 1986م.
- سـيبويه، **الكتـاب** ، تـح: عبـد السّـلام هـارون، مط:عـالم الكتـب ، بيـروت، لبنـان، ط1 1966م.
- صـبحي الصّـالح، **دراسـات فـي فقـه اللغـة**، دار العلـم للملايـين، ط15، بيـروت، لبنـان، سبتمبر2002م.
- طه رضوان طه رضوان، **تلوين الخطاب في القرآن الكريم**(رسالة دكتوراه)، إشراف: عبده علي الرّاجحي، ومحمّد بدري عبد الجليل ، دار الصّحابة للتّراث، طنطا، ط1 ،2007م.
- عبد المنعم فائز ، **السّيرافي النّحوي** ، مطبعة دار الفكر، دمشق، ط1 ، 1983م.

- فخر الدّين قباوة، **مشكلة العامل النّحوي و نظرية الاقتضاء**، دار الفكر، دمشق، ط1، 1424هـ/2003م.
- **محمّد بن المستنير، مثلّثات (قطرب)** ، تح: رضا السويسي، الدّار العربية للكتاب ، ليبيا، تونس، ط1 ، 1978م.
- محمّد حسن حسن جبل ، **المختصر في أصوات اللغة العربية– دراسة نظرية وتطبيقية**، مط: البربري للطباعة الحديثة ، بسيون، مصر، ط3 ، 2005م/ 1426هـ .
- محمّد خان، **اللّهجات العربية و القراءات القرآنية- دراسة في البحر المحيط** ، دار الفجر للنّشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2002م.
- مكّي درّار، **الحروف العربية و تبدّلاتها الصوتية في كتاب سيبويه** (رسالة ماجستير) ، إشراف: ابراهيم العطية ، جامعة وهران، 1985م/1986م.
- مهدي المخزومي، **في النّحو العربي- نقد وتوجيه**، المكتبة العصرية ، بيروت، لبنان، ط1 ، 1964م.
-أحمد يوسف، **سيميائية التّواصل وفعّالية الحوار- المفاهيم والآليات**، منشورات مختبرات السّيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، ط1 ، 2004م